الفصل الثالث

الحياة اللاحقة

بعد قرنٍ من نشر **رأس المال**، تفاخر رئيس الوزراء البريطاني هارولد ولسون بأنّه لم يقرأ قطّ هذا الكتاب. "لم أَمْضِ أبعد من الصفحة الثانية، حيث يبلغ طول الحاشية ما يقارب صفحة كاملة. وشعرت أنَّ جملتيّ المتن والحاشية التي تبلغ صفحة فوق ما أطيق". ويكفي أن نلقي نظرةً خاطفةً إلى المجلّد الأول من **رأس المال** لنكتشف أن ما يقوله هارولد ولسون هو ضرب من المبالغة الزائدة: فثمة بالفعل عدد من الحواشي في الصفحات الافتتاحية، لكن أيّاً منها لا يزيد على جمل قليلة. ومع ذلك، ربما كان ولسون ينطق بلسان كثير من القرّاء الآخرين الذين نفروا من قراءة **رأس المال** بسبب "صعوبته" المُتَخَيَّلة أو الفعلية.

وكان ماركس قد توقّع في تصديره ردّة الفعل هذه. "إنَّ فهم الفصل الأول، خاصةً القسم الذي يشتمل على تحليلٍ السلع،

سوف... يشكّل الصعوبة الأكبر. ولقد عمدتُ إلى تبسيط المقاطع المتعلقة بجوهر القيمة ومقدار القيمة قدر الإمكان". وأشار ماركس إلى أنَّ شكل القيمة أوّلي وبسيط جدّاً. "ومع ذلك، فقد حاول العقل البشري عبثاً على مدى أكثر من 2000 سنة أن ينفذ إلى سرّه... ولذلك، فإنَّ هذا المجلّد، باستثناء القسم الذي يتناول شكل القيمة، لا يمكن اتّهامه بالصعوبة. وأنا أفترض، بالطبع، قارئاً يرغب في أن يتعلّم شيئاً جديداً ومستعدّاً إذاً لأن يُعْمِلَ فكره".

لكن إنجلز نفسه لم يكن مقتنعاً بهذا. وقد حذّر ماركس، بينما كان الكتاب يُضْرَب على الآلة الكاتبة، من الخطأ الفادح المتمثّل في عدم إيضاح حججه النظرية بتقسيمها إلى أقسام أصغر بعناوين مستقلّة. "سوف يبدو الأمر أشبه بكتابٍ مدرسيَ، لكنَّ فهمه سوف يسهل كثيراً لدى طبقةٍ واسعةٍ من القرّاء. فالعامة، وحتى الباحثين، لم يعودوا معتادين مطلقاً على هذه الطريقة في التفكير، وعلى المرء أن يسهّل الأمر عليهم قدر الإمكان". ولقد أجرى ماركس بعض التغيير على التجارب الطباعية، لكن ذلك لم يكن أكثر من سَمْكَرةٍ هامشية. وتساءل إنجلز يائساً بعد رؤيته التجارب النهائية: "كيف أمكنك أن تترك بنية الكتاب **الخارجية** في شكلها الحاليّ! الفصل الرابع يقارب طوله 200 من الصفحات وليس فيه سوى أربعة أقسام فرعية... وعلاوةً على ذلك، فإنَّ تدفّق الأفكار لا تني تقطعه الإيضاحات، والنقطة التي تُوضَح لا تُلَخَّص قطّ بعد الإيضاح،

بحيث يغوص المرء إلى ما لانهاية من إيضاح نقطةٍ إلى عرض نقطةٍ أخرى. ذلك منهكٌ على نحوٍ فظيع، ومُشوِّش أيضاً".

وثمّة معجبون آخرون وجدوا أعينهم تنفتح على وسعها وتجمد وهم يقارعون الفصول الأولى الغامضة. وقد كتب ماركس إلى لودفيغ كوغلمان، صديقه في هانوفر: "أرجو أن تتلطّف بالقول لزوجتك إنَّ الفصول عن "يوم العمل"، و"التعاون، وتقسيم العمل والآلات" وأخيراً عن "التراكم البدئي" هي الأسهل قراءة. وسيكون عليك أن تشرح لها تلك المصطلحات التي لا تحيط بها. وإذا ما كانت هناك أيّ نقاط محلّ شكّ، فسوف يسرّني أن أساعد". وحين قرأ الاشتراكي البريطاني العظيم وليم موريس **رأس المال**، قال: "لقد استمتعت بالقسم التاريخي أشدّ الاستمتاع" لكنه اعترف بأنه عانى "تباريح تشوّش الدماغ لدى قراءة ما في ذلك الكتاب العظيم من اقتصاد محض. وعلى أيّ حال، لقد قرأتُ ما استطعتُ، وآمل أن تكون قد بقيت لديَّ بعض المعلومات من قراءاتي هذه" (وقد ثبت أنَّ هذه القراءة كانت استثماراً جيداً بجميع المعاني: فقد بيعت نسخة موريس من المجلّد الأول، وهي نسخة ذات غلاف جلدي مزخرف، مقابل 50000 دولار في مزاد جرى في أيار 1989.

ولعلّ عدم الفهم المحض، وليس العداوة السياسية، هو الذي يفسّر ردّة الفعل الخافتة على **رأس المال** في طبعته الأولى. ولقد أزعج ماركس ذلك "الصمت إزاء كتابي". وحاول إنجلز أن يروّج

للكتاب بتقديمه للصحف مراجعات معادية بأسماء زائفة وحثّ أصدقاء ماركس الآخرين على فعل الشيء ذاته. وقال لكوغلمان: "الشيء الأساسي هو أنَّ الكتاب ينبغي أن يُطْرَح للنقاش مرّة بعد مرّة، بأيّ طريقة مهما تكن. وكما يقول صديقنا القديم يسوع المسيح، ينبغي أن نكون ودعاء كالحمامة وحكماء كالأفعى". وفعل كوغلمان ما بوسعه، وأرسل مقالات إلى اثنتين من الصحف في هانوفر، غير أنّهما لم تلقيا كثيراً من الضوء لأنّه هو نفسه لم يفهم الكتاب. وأرغى إنجلز وأَزْبَد: "إنَّ كوغلمان يزداد سذاجةً كلّ يوم".

استغرق نفاد الطبعة الأولى التي صدرت في 1000 نسخة أربع سنوات. ومع أنَّ ماركس زعم في تذييله للطبعة الثانية (1872) أنَّ "التقدير الذي سرعان ما حظي به **رأس المال** لدى أوساط واسعة من الطبقة العاملة الألمانية هو خير مكافأة على عملي"، إلا إنّه من غير المحتمل أن يكون الكتاب قد وصل إلى أيدي كثير من العمال، على الرغم من أنهم كانوا قد تعرّفوا على موضوعاته الأساسية من خلال سلسلة من المقالات كتبها جوزيف ديتزغن لـ Demokratisches Wochenblatt (المجلة الأسبوعية الديمقراطية). وكتبت جيني ماركس: "لا يمكن أن يكون هناك سوى قليل من الكتب التي كُتِبَت في ظروف أصعب. ولو كان لدى العمال أدنى فكرة عن التضحيات التي كانت ضرورية لكي يكتمل هذا العمل، الذي لم يُكْتَب إلا لهم ومن أجلهم، لربّما أبدوا قدراً من

الاهتمام أكبر بقليل". ولكن كيف كان سيمكنهم أن يبدوا مثل هذا الاهتمام، إزاء كتاب بمثل هذا الطول والكثافة والموضوع غير المألوف؟ فالاقتصاد السياسي -كما قال ماركس نفسه- "لا يزال علماً أجنبياً في ألمانيا".

بيد أنَّ ردود فعلٍ مهتمّة راحت تبرز في غير مكان. فمنذ كانون الثاني 1868، بعد شهرين من نشر الكتاب، أشارت **الساتردي ريفيو** اللندنية إلى **رأس المال** من ضمن مجموعة من الكتب الألمانية الصادرة حديثاً. وقالت إنَّ "آراء المؤلّف قد تكون خبيثةً كما نتوقّع، غير أنّه لا مجال للشكّ في معقوليّة منطقه، وقوة بلاغته، والسحر الذي يتناول فيه أشدّ المشكلات جفافاً في الاقتصاد السياسي". كما ظهرت إشارة في **الكونتيمبوراري ريفيو** بعد خمسة أشهر من صدور الكتاب، عبّرت من منطلق وطني عن ازدرائها الاقتصاد الألماني ("لا نظنّ أنّ لدى ماركس كثيراً مما يعلّمنا إيّاه")، لكنها أثنت على المؤلّف لأنّه لم يَنْسَ "الاهتمام الإنساني، "الاهتمام الجائع والظمآن" الذي يشكّل أساس العلم".

وفي ربيع العام 1872 ظهرت ترجمةٌ روسية لـ **رأس المال**، ومرّت من رقباء القيصر على اعتبار أنْ ليس فيها ما ينطبق على روسيا فلا يمكن، إذاً، أن تلعب ذلك الدور الهدّام (مع أنهم أزالوا صورةً للمؤلّف، خشيةَ أن تثير عبادةً لشخصه). وقد حكموا على النصّ أنّه مستغلق لدرجة أنَّ "قلّة وحسب هي التي ستقرأه وأقلّ

منها هي التي ستفهمه"، غير أنَّ الثلاثة آلاف نسخة نفدت في معظمها خلال سنة واحدة. وفي حين لم يكن كتاب ماركس متاحاً أو معروفاً في معظم بلدان الغرب الرأسمالية، راحت صحف ومجلات روسيا ما قبل الرأسمالية تنشر المراجعات التي تقرّظه وتثني عليه. وقد كتب ماركس لإنجلز: "أليس من المفارقة أنّ الروس، الذين قارعتهم على مدى خمسة وعشرين عاماً، يريدون دوماً أن يكلأوني برعايتهم؟ إنهم يهرعون وراء ما يقدّمه الغرب من الأفكار الأشدّ تطرُّفاً، انطلاقاً من النّهم المحض". ولقد سُرَّ ماركس على نحوٍ خاص بإشارةٍ ظهرت في **السان بطرسبورغ جورنال**، تمتدح "الحيوية الاستثنائية" في نثره. وأضافت: "ليس للمؤلّف من نظير، في هذا الصّدد... فغالبية الباحثين الألمان يكتبون كتبهم بلغةٍ بالغة الجفاف والغموض تصدّع رؤوس العاديين من البشر الفانين".

وكان تقديم طبعةٍ فرنسيةٍ يمثّل مشكلة أكبر. فعلى الرغم من بدء العمل على هذه الطبعة في العام 1867، بعد نشر الطبعة الألمانية مباشرةً، إلاّ أنَّ محاولات الترجمة التي شهدتها السنوات الأربع التالية، والتي لا تقلّ عن خمس محاولات، رُفِضَت جميعاً. وفي النهاية، بارك ماركس عمل جوزيف روا، الأستاذ من بوردو. غير أنّه وجد، بعد مراجعة الفصول الأولى، أنّ ترجمة روا "حسنة بوجه عام"، لكنه غالباً ما يترجم بحرفية زائدة. "ولذلك وجدتُ

نفسي مضطراً لأن أعيد كتابة مقاطع كاملة بالفرنسية، لجَعلِها مقبولة ومستساغة". وقرّر الناشر، بموافقة ماركس، أن يصدر الكتاب على فصول أو حلقات ("ففي هذا الشكل سيكون الكتاب أيسر منالاً للطبقة العاملة")، وصدرت أولى هذه الحلقات في أيار 1875.

أمّا في البلد الذي آل إليه نفي ماركس، فقد تلا تلك المراجعات الباكرة الواعدة صمتٌ طويل. وفي آذار 1875، كتب المحامي في المحاكم العليا السِّرّ جون مَكّدونِلَ في **الفورتنايتلي ريفيو**: "على الرغم من أنَّ ماركس عاش طويلاً في إنجلترا، إلاّ أنّه يكاد أن يكون مغموراً هنا. وقد يكرّمه الناس هنا بالإساءة إليه؛ أمّا أن يقرأوه فلا". وكان ماركس يعتقد أنَّ "تلك الموهبة الخاصة المتمثّلة بسماكة الدماغ وتبلّده" هي حقّ يكتسبه كلّ بريتوني بالولادة، وما أثبت تحاملَه هذا هو أنّه لم تظهر طبعة إنجليزية من **رأس المال** إلا بعد وفاته. وقد كتبت دار النشر ميسرز **ماكميلان وشركاه** إلى صديق إنجلز كارل شورليمر، أستاذ الكيمياء العضوية في جامعة مانشستر: "نحن في غاية الامتنان لرسالتك. غير أننا لسنا مهيّئين لتحمّل نشر ترجمة ل رأس المال". وكان على أولئك القلّة من البريتون الذين أرادوا دراسة الكتاب أن يبذلوا ما وسعهم من جهد مع الطبعات الألمانية، أو الروسية، أو الفرنسية. ولقد قال الصحفي الإنجليزي الراديكالي بيتر فوكس، ناشر **الناشينال ريفورمر**، بعد

تلقّيه الطبعة الألمانية إنّه شعر كما يشعر شخص قُدِّم إليه فيل ولا يعلم ما الذي يفعله به. أمّا روبرت بانر، العامل الاسكتلندي، فقد أرسل إلى ماركس هذا الالتماس المكروب طالباً مساعدته:

> **أليس هناك من أمل في أن يُتَرْجَم؟ فما من عمل بالإنجليزية يدافع عن قضية الجماهير الكادحة، كلّ كتاب نضع عليه أيدينا نحن الاشتراكيون الشباب هو عمل يقف في صفّ رأس المال، وهذا هو السبب في تخلّف قضيّتنا في هذا البلد. ومع عمل يُعْنَى بالاقتصاد من وجهة نظر الاشتراكية، سرعان ما ستجد حركةً في هذا البلد تضع حدّاً لهذه الحالة النغلة.**

فأولئك الذين كانوا بأمسِّ الحاجة إلى الكتاب كانوا الأقلّ قدرة على فهمه، في حين أنَّ النخبة القادرة على قراءته لم تكن راغبةً في ذلك. وكما كتب الاشتراكي الإنجليزي هنري هيندمان: "لقد اعتدنا في هذه الأيام، خاصةً في إنجلترا، على ألاّ نبارز إنْ لم يكن ثمّة أزرار لينة كبيرة على أطراف سيوفنا، وهجوم ماركس العنيف والمخيف بفولاذٍ عارٍ على خصومه بدا نابياً بحيث كان من المستحيل بالنسبة لمقاتلينا المهذّبين الذين ليسوا مقاتلين إلاّ في الظاهر ورجالنا ذوي الروح الرياضية أن يصدّقوا أنَّ هذا المُجادِل العنيف ومُهاجِمُ رأس المال والرأسمالية الحانق هو حقّاً أعمق مفكّر في عصرنا".

وكان هيندمان نفسه استثناءً من هذه القاعدة. ففي 1880، بعد قراءته ترجمة **رأس المال** الفرنسية، أمطر المؤلّف بوابلٍ من الإشادات المغالية التي اضطرت ماركس لأن يقابله. غير أنَّه على الرغم من اعتراف هيندمان نفسه بأنّه "توّاق لأن يتعلّم"، إلاّ أنّه هو الذي استأثر بمعظم الحديث: وبات ماركس يتوجّس خيفة من زيارات هذا "الثرثار المُعْجَب بذاته". وكان فراقهما الحتميّ في حزيران 1881، حيث اشتمل البيان الاشتراكي الذي وضعه هيندمان، بعنوان **إنجلترا للجميع**، على فصلين منتحلين في معظمهما من **رأس المال** دون إذن أو حتى إقرار بالأمر، سوى هامش في التصدير يعترف فيه بأنّه "مدين، فيما يتعلّق بالأفكار وقَدْر كبير من المادة التي يحتويها الفصلان الثاني والثالث، لعملِ مفكّرٍ عظيمٍ وكاتبٍ أصيل، لا شكَّ أنّه سوف يكون متاحاً خلال فترةٍ وجيزةٍ لغالبية أبناء بلدي". ورأى ماركس أنَّ هذا ناقص على نحوٍ مُخْزٍ ولا يفي بالغرض: فلماذا لم يُشِر هيندمان إلى **رأس المال** أو إلى مؤلّفه بالاسم؟ كانت حجّة هيندمان الواهية أنَّ لدى الإنجليز "رعب من الاشتراكية" و"هلع من أن يعلّمهم أجنبي". غير أنَّ كتاب هيندمان، كما أشار ماركس، لم يكن من شأنه أن يسكّن ذلك الرعب بإثارته "حلم الاشتراكية" في الصفحة 86، وأيّ قارئ متوسّط الذكاء لا بد أن يخمّن منذ التصدير أنّ "المفكّر العظيم" الغُفْل لا بدّ أن يكون أجنبياً. فالأمر، إذاً، أمْرُ سرقةٍ صرف وواضحة، مترافقة مع إقحام

أخطاء بلهاء في الفقرات التي لم تؤخذ من **رأس المال** كما وردت فيه حرفياً.

ولم يكد ماركس يختلف مع مريدٍ إنجليزي حتى جاءه واحد آخر، مع أنّه اهتمّ هذه المرّة بألاّ يلتقي الرجل. ولقد وُلِدَ إرنست بِلْفورت باكس في العام 1854، وجعلته **كومونة باريس** جذرياً وهو لا يزال صبيّ مدرسة، وفي العام 1879 بدأ ينشر في شهريّة **الفكر الحديث** النخبوية سلسلة طويلة من المقالات حول مفكريّ العصر من العمالقة، وكان من بينهم شوبنهور، وفاغنر، و(في 1881) كارل ماركس. ولأنَّ باكس كان قد درس الفلسفة الهيغلية في ألمانيا، ربما كان بين أبناء جيله من الاشتراكيين الإنجليز الوحيد الذي قبل الديالكتيك بوصفه دينامية الحياة الداخلية. وقد وصف **رأس المال** بأنه الكتاب "الذي يجسّد اشتغال مذهب في الاقتصاد تمكن مقارنته من حيث طابعه الثوري ومدى أهميته الواسع بالنظام الكوبرنيكي في علم الفلك، أو قانون الجاذبية في الميكانيك". ولقد سُرَّ ماركس بذلك، ورحّب بمقالة باكس بوصفها "أول مطبوعةٍ من هذا النوع مفعمة بحماس حقيقي للأفكار الجديدة وتقف بجرأة ضدّ النزعة البريطانية النافرة من الثقافة".

غير أنَّ هيندمان المُحْتَقَر، على الرغم من جميع أخطائه، هو الذي قام بأكثر مما قام به باكس أو أيّ أحد آخر لنشر أفكار ماركس في هذا البلد النافر من الثقافة. ولقد بقي ذلك المريد المتحمّس،

الذي اقتبس من ماركس على نحوٍ مُسْهَب – مشيراً إليه بالاسم هذه المرّة – في كتابه **الأساس التاريخي للاشتراكية في إنجلترا**، الذي صدر عام 1883. بل إنّه أسّس حزباً سياسياً ماركسياً على نحوٍ صريح، هو **الاتحاد الديمقراطي** (ولاحقاً **الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي**)، الذي كان من بين أعضائه البارزين كلٌّ من باكس، ووليم موريس، وولتر كرين، وابنة ماركس إليانور، وحبيبها إدوارد أفيلنغ. ودفاع هيندمان الحماسي عن رأس المال في اجتماعات **الاتحاد** هو الذي دفع الكاتب الإيرلندي الشاب جورج برنارد شو لأن يكرّس خريف 1883 لدراسة الطبعة الفرنسية في قاعة المطالعة في **المتحف البريطاني**، حيث وقع ماركس على قَدْرٍ كبير من مادّته الخام. وقد تذكّر شو ذلك معتبراً إياه "نقطة تحوّل في مسيرة حياتي. فماركس كان ضَرْباً من الكشف... فتح عينيّ على وقائع التاريخ والحضارة، ومنحني تصوّراً للكون جديداً تماماً، وزوّدني بغايةٍ ورسالة في الحياة". وقال عن رأس المال إنّه "حقّق أعظم مأثرة يمكن لكتاب أن يحقّقها، وهي تغيير عقول من يقرأونه".

ولم يبهت قطّ شغف شو بكتاب **رأس المال**، الأمر الذي تثبّته هذه الإشادة المغالية المميّزة في الصفحة الأولى ذاتها من كتابه **دليلٌ سياسي للجميع**، الذي كتبه بعد أكثر من ستين عاماً:

> **لم يبلغ التشاؤم والنزعة الكلبيّة أشد أعماقهما سواداً قبل القرن التاسع عشر، حين انتزع كارل ماركس**

تقارير مفتّشي مصانعنا من كتبنا الزرقاء غير المقروءة وكشف الرأسمالية بكلّ شناعتها. فقد أثبت تماماً أنَّ رأس المال في سعيه وراء ما دعاه Mehrweth، وهو ما نترجمه ب فضل القيمة (الذي يضمّ الريع، والفائدة، والربح التجاري)، لا يعرف الرحمة، ولا يقف عند حدّ، حتى الدمار والمذبحة، والرقيق الأبيض والأسود، والمخدرات والمسكرات، إذا ما كان ذلك يعد بشلن واحد زيادة على عوائد الإحسان وحبّ الخير. وقبل ماركس كان ثمّة قَدْر وافر من التشاؤم. وسفر الجامعة في الكتاب المقدّس ممتلئ به. وشكسبير في الملك لير، وفي تيمون الأثيني، وفي كريولانس، يصل إليه ويعلق هناك. وكذلك يفعل سويفت وغولد سميث. غير أنَّ أحداً منهم لم يستطع أن يوثّق الحالة من المصادر الرسمية كما فعل ماركس. وقد خلق بذلك تلك الحاجة إلى "عالمٍ جديد" لا يلهم الشيوعية والاشتراكية الحديثتين وحسب بل غدا أيضاً في 1941 شعاراً برنامجياً لدى كلٍّ من المحافظين ورجال الكنيسة المتحمّسين.

لم يحقق شو سوى قليل من النجاح في نشر الإنجيل بين زملائه من أعضاء **الجمعية الفابية**، التي انضمّ إليها عام 1884.

فصديقه هـ. ج. ويلز صرف النظر عن ماركس بوصفه ذلك "المنظّر المتعجرف، المتمركز على أناه، والحقود" الذي "أعطى لأرخص الدوافع البشرية وأدناها تلك الوضعيات التي تتّخذها فلسفةٌ دعيّة متفاخرة". وبتأثيرٍ من منظِّرهم الرئيس، سيدني ويب، قاد الفابيون الاشتراكية البريطانية بعيداً عن تصوّرات الحرب الطبقية والثورة باتجاه القناعة التي مفادها أنَّ الدولة البريطانية القائمة يمكن، من خلال حقّ الاقتراع الشامل، أن تسنّ تشريعات اجتماعية تعزّز رفاهية الطبقة العاملة وكفاءة النظام الاقتصادي. وهذا ما غدا المبدأ الأساسي السائد لدى **حزب العمال** أيضاً، الذي تشكّل عام 1900. وقد يكون ثمّة مبالغة في ذلك التهكّم القديم الذي يرى أنّ **حزب العمال** يدين للميثودية [تلك الجماعة الدينية المسيحية التي تتبع تعاليم جون ويسلي]بأكثر مما يدين لماركس: فبين أنصاره، وأعضائه في البرلمان، كان ثمّة اشتراكيون قد يصفون أنفسهم بأنهم متأثّرين بماركس إنْ لم يصفوا أنفسهم بأنهم ماركسيين؛ بل إنَّ الحزب أصدر في العام 1947 طبعة جديدة من **البيان الشيوعي** "إقراراً بما يدين به إلى ماركس وإنجلز بوصفهما الرجلين اللذين ألهما حركة الطبقة العاملة برمّتها". غير أنَّ قادة **حزب العمال** لطالما استصوبوا رأي هارولد ولسون بأنّ تراث ماركس لا أهمية له، ولعلّه أن يكون مُضِراًّ في حقيقة الأمر، بالنسبة لحزب دستوري من يسار الوسط.

وفي ألمانيا، موطن ماركس، غدت أفكاره الإيديولوجيا السائدة لدى **الحزب الاشتراكي الألماني** Sozialistisch Partei Deutschlands (SPD) في مؤتمره الذي عقده عام 1891 في إيرفورت. لكن برنامج إيرفورت كان يتألّف من نصفين متميزين، ينذران بصراع مديد بين الثوريين والتنقيحيين. فالقسم الأول، الذي وضع مسودته كارل كاوتسكي مريد ماركس، كان يُفْصِح عن نظريات مألوفة مستمدّة من **رأس المال**، مثل الميل إلى الاحتكار وإفقار البروليتاريا؛ أمّا النصف الثاني، الذي كتبه إدوارد برنشتين، فكان يُعنى بأهداف سياسية مباشرة، مثل الاقتراع الشامل، ومجانية التعليم، وضريبة الدخل التصاعدية. وكان برنشتين قد عاش في لندن في ثمانينيات القرن التاسع عشر ووقع تحت تأثير الفابيين الأوائل: حتى إنَّ روزا لوكسمبورغ تذمّرت من أنه "يرى العالم من خلال عدسات إنجليزية".

وفي العقد الذي تلا مؤتمر إيرفورت تنصّل برنشتين من قَدْر كبير من تراث ماركس، ورَفَض نظريّته في القيمة بوصفها "مفهوماً مجرّداً محضاً" يقصّر عن تفسير العلاقة بين العرض والطلب. ورغب كاوتسكي في البداية عن انتقاد رفيقه القديم، وبدا في بعض الأحيان كأنّه يشجّعه: "لقد أطحتَ بتكتيكاتنا، ونظريّتنا في القيمة وفلسفتنا؛ ويتوقّف كلّ شيء الآن على الجديد الذي تفكّر في أن تحلّه محلّ القديم". ومع نهاية القرن، اتّضحت تماماً نوايا برنشتين.

فالرأسمالية، بدلاً من أن تطيح بها أزمة محتومة ووشيكة، ربما تدوم وتجلب مزيداً من الازدهار للجماهير. وإذا ما نُظِّمَت على النحو الملائم، قد تثبت عملياً أنها محرّك التقدّم الاجتماعي:

> **هكذا يكون من الخطأ تماماً أن نفترض أنّ التطور الحالي الذي يشهده المجتمع يبدي عن انخفاضٍ نسبيّ أو مطلق في عدد أعضاء الطبقات المالكة. فعدد هؤلاء يزداد سواء على نحوٍ نسبيّ أو على نحوٍ مطلق... وآفاق الاشتراكية لا تتوقّف على نقص الثروة الاجتماعية بل على زيادتها.**

ومع أنَّ الحزب الاشتراكي الألمانيّ ظلّ يشير إلى ذاته بوصفه منظمة بروليتارية ثورية، إلا أنّه بات عملياً حزباً برلمانياً يحقّق نجاحاتٍ متزايدة ويقوده أصحاب النزعة التدرّجيّة والتكنوقراط.

ولعلّ ماركس نفسه، بوصفه ذوّاقة وخبيراً بالسخرية، كان ليضطرّ للابتسام (أو ليّ الحنك على الأقلّ) إزاء هذا المصير الذي آلت إليه الأمور: حيث بات نبيّاً بلا كرامةٍ في وطنه الأمّ، فما بالك بالوطن الجديد الذي اتّخذه بريطانيا، وذلك في الوقت الذي راح يلهم انقلاباً مزلزلاً في المكان الذي كان أبعد ما يكون عن توقّعاته، روسيا، ذلك البلد الذي نادراً ما ورد ذكره في **رأس المال**. وفي أواخر حياته راح ماركس يحسّ بالندم على هذا الإغفال: ذلك أنَّ

النجاح الذي حقّقته الطبعة الروسية من رأس المال دفعه لأن يتساءل عمّا إذا كان ثمّة احتمال ثوريٌّ يتفاعل هناك.

وكان مترجمه الروسي في سان بطرسبورغ، نيكولاي دانييلسون، قائداً للحركة النارودنيّة أيضاً، تلك الحركة التي رأت أنّ بمقدور روسيا أن تمضي مباشرة من الإقطاعية إلى الاشتراكية. وأقنعتها تلك الصورة التي رسمها ماركس لآثار الرأسمالية ومفاعيلها المدمّرة للروح بأنّ هذه المرحلة من مراحل النموّ الاقتصاديّ ينبغي تفاديها إذا ما كان ذلك ممكناً، وبما أنَّ في الريف الروسي ذلك الشكل الجنينيّ من ملكيّة الأرض المشاعيّة فقد كان يُعَدُّ انحرافاً وضرباً من التشويه أن يجري تحطيم الكومونات أو المشاعات الفلاحية بغية تسليمها لملاّك الأرض لمجرّد الخضوع لقانون تاريخيّ حتميّ مزعوم. أمّا بالنسبة للماركسيين الأرثوذكس مثل جورج بليخانوف، الذي رأى أنّ الشروط الاشتراكية لن تنضج قبل أن يجري تصنيع روسيا، فقد كان ذلك نوعاً من الغباوة وخداع الذات، وهذا ما بدا أنّ ماركس يراه أيضاً على مدى عقدٍ أو أكثر من نشر **رأس المال**. وقد كتب في العام 1876، ردّاً على أحد النارودنيّين كان قد احتجّ على رؤيته الحتمية للتاريخ، أنّه إذا ما كان لروسيا أن تغدو بلداً رأسمالياً على غرار البلدان الأوروبية الغربية فإنّها "لن تفلح في ذلك قبل أن تُحوِّلَ قدْراً كبيراً من فلاّحيها إلى بروليتاريا؛ وبعد ذلك، أي بعد أن تكون قد أُخِذَت إلى كَنَف النظام

الرأسمالي سوف تختبر قوانينه التي لا تعرف الرحمة. شأنها شأن الشعوب الدنيوية الأخرى". غير أنّ ماركس ظلَّ يمعن الفِكْر في التطوّرات الجارية في روسيا، والتي كانت تهدّد بدحض نظريّاته. فحركة التمرّد هناك قد تكون صغيرة لكنها ذات عزيمةٍ وفعالية هائلتين: فبين العام 1879 والعام 1881 قامت جماعةٌ منشقّةٌ عن النارودنييّن، تُدّعى **إرادة الشعب**، بستّ محاولات لاغتيال القيصر الكسندر الثاني، إلى أن نجحت أخيراً محاولتها السابعة (وبعد ستّ سنوات حاولت **إرادة الشعب** أيضاً أن تغتال القيصر الكسندر الثالث؛ وكان أحد الذين شُنِقوا بسبب دورهم في هذه المؤامرة الكسندر أوليانوف، الذي سيغدو أخوه المراهق في ذلك الحين فلاديمير إيليتش أوليانوف من سيُعْرَف بالاسم المشهور ف. إ. لينين). ودفع سيلُ الاعتقالات والإعدامات التي تلت ذلك كثيراً من الثوريين الروس إلى المنفى. فذهب بليخانوف إلى سويسرا مع عدد من الرفاق من بينهم فيرا زاسوليتش التي أطلقت النار في العام 1876 على الحاكم العام لسان بطرسبورغ ثمّ أدّت في قاعة المحكمة ذلك الأداء البارع لدرجة أنّ المحكمة برّأتها من محاولة الاغتيال. وعلى الرغم من سجلّها، رفضت زاسوليتش ذلك الميل المتزايد إلى العنف والاغتيال في صفوف الاشتراكية الروسية، التي بدت وكأنها قد أضاعت فهمها للضرورات الاقتصادية التي أشار إليها **رأس المال**. بيد أن مسألة الفلاحين والبروليتاريين ظلت تقلق زاسوليتش

وزملاءها المنفيّين على ضفاف بحيرة جنيف. وفي شباط 1881 لجأت إلى ماركس طلباً لرأيه الموثوق. فكتبت له "أنت تعلم أنّ كتابك **رأس المال** يحظى بشعبية عظيمة في روسيا. لكنّ ما لا تعلمه هو الدور الذي يلعبه **رأس المال** في نقاشاتنا التي تتناول المسألة الزراعية". وطلبت منه أن ينهيَ ذلك الخلاف "بتبيان الرأي في المستقبل المحتمل لمشاعتنا القروية وفي النظرية التي ترى أن ثمة حتمية تاريخية تضطر جميع بلدان العالم لأن تمرّ بجميع أطوار الإنتاج الرأسمالي"؟

وأقضّت هذه المشكلة مضجع ماركس أسابيع قليلة، وكتب ما لايقلّ عن خمس مسوّدات لردّه المُزْمَع. وفي النهاية بعث لها برسالةٍ موجزة تقول "إنّ ما يُدعى نظريّتي" قد أُسيءَ فهمها: فحتميّة الطور البرجوازي التاريخية "مقصورةٌ **بلا لَبْس على بلدان أوروبا الغربية**". فالانتقال الغربيّ من الإقطاعية إلى الرأسمالية مثّل تحوّلاً من نمطٍ للملكية الخاصة إلى نمطٍ آخر، أما في حالة الفلاحين الروس "فستكون المسألة، على العكس، مسألة تحويل ملكيّتهم المشتركة إلى ملكية خاصة. ولذلك فإنَّ التحليل الذي يقدّمه **رأس المال** لا يورد حججاً مع أو ضد قابلية المشاعة القروية للحياة". وكان ذلك مشجّعاً أكثر من تعليقاته التي أدلى بها قبل أربع سنوات وحسب، لكنه كان أكثر حذراً من المسوّدة الأولى لرسالته إلى زاسوليتش، والتي شرح فيها ما يجعل فرار الفلاحين الروس من مصير

نظرائهم الأوروبيين الغربيين ممكناً والكيفية التي يمكن أن يتمّ بها هذا الفرار:

> **في روسيا، وبفضل تضافر ظروف فريدة يمكن للمشاعة القروية، التي لا تزال قائمة على نطاق البلد ككلّ، أن تنفصل تدريجياً عن خصائصها البدائية وتتطور مباشرة كعنصر من عناصر الإنتاج الجمعيّ على نطاق البلد ككلّ... وإنقاذ المشاعة الروسية، يحتاج ثورة روسية. وذلك هو السبب في أنّ الحكومة و "أعمدة المجتمع الجدد" يفعلون ما بوسعهم لتهيئة الجماهير لمثل هذه الكارثة. وإذا ما أتت الثورة في اللحظة المناسبة، وركّزت جميع قواها على إتاحة فرصة التطور الكامل أمام المشاعة القروية، فإنّ هذه الأخيرة سرعان ما ستتطوّر كعنصرٍ من عناصر التجديد في المجتمع الروسيّ وكعنصرٍ من عناصر التفوق على البلدان التي يستعبدها النظام الرأسمالي.**

وبعد خمسة أيام من إرسال ماركس الطبعة الأخيرة من رسالته، قامت جماعة صغيرة من إرادة الشعب باغتيال القيصر الكسندر الثاني في سان بطرسبورغ بإلقاء قنبلة على عربته.

ونظراً لقناعة ماركس التي حملها طويلاً بأنّ الثورة لا يمكن أن تتحقق إلاّ من خلال فعل الطبقة العاملة الجمعيّ، لا من خلال البهلوانيات الفردية أو أعمال الإرهاب، كان من المتوقّع أن يقف ماركس في صفّ زاسوليتش وبليخانوف وليس في صفّ رماة القنابل الذين يصرخون الموت أو النصر. غير أنّه أسرَّ لابنته جيني في إحدى الرسائل بأنّ المنفيّن السويسريين هم "مجرّد عقائديين، واشتراكيين فوضويين مبلبلي الفكر، وتأثيرهم معدوم على "ساحة الحرب" الروسية". أمّا أولئك الذين يقومون بالاغتيالات في سان بطرسبورغ فَهُم، على العكس، "رجالٌ ذوو خلق متين، دون استعراضاتٍ ميلودرامية، بسطاء، واقعيون، بطوليون... لا يألون جهداً في تعليم أوروبا أنّ **طريقتهم في العمل** روسيّة نوعياً وأنّها أسلوبٌ في العمل محتوم تاريخياً لم يعد يُسلِم نفسه للتفسيرات الأخلاقية - المؤيّدة أو المعارضة - إلاّ بقدْر ما يسلم زلزال تشيوس نفسه لمثل هذه التفسيرات".

وما كان ليُصدَّق أن يتّخذ كارل ماركس الشاب مثل هذا الموقف: فلطالما أدان أولئك الاشتراكيين الذين وضعوا ثقتهم بالانقلابات والمؤامرات السريّة. أمّا في العام 1881 فكان مريضاً ومنهكاً. ولأنَّ انتظاره الثورة البروليتارية الحقّة طال كثيراً فقد بات الآن نافذ الصبر حدّ التعب إزاء أيّ انتفاضة من أيّ نوع. وبعد ولادة حفيده ذلك الربيع، راح يتأمّل في أنّ الأطفال "الذين وُلِدوا

عند هذا المنعطف من التاريخ... أمامهم مرحلة ثورية لم يسبق للبشر قطّ ان شهدوا ما يماثل ثوريّتها. وأسوأ شيء الآن أن يكون المرء "عجوزاً" فلا يمكنه سوى أن يتنبّأ بدلاً من أن يرى".

وكان جميع مهندسي ثورة 1917 (ثورة أكتوبر الروسية) يستشهدون بماركس، وبـ **رأس المال** خاصةً، كسلطة أو مرجعية سماوية تدلّ على صوابيّة آرائهم. وكان تروتسكي قد درس الكتاب في العام 1900 حين نُفِيَ إلى قريةٍ في سيبيريا تعجّ بالحشرات المريعة "نافضاً الصراصير عن صفحاته"، كما تذكّر لاحقاً. أمّا لينين فقد قال إنّه قرأ الكتاب في العام 1881، ولم يتخطَّ الثامنة عشرة، جالساً إلى موقد في مطبخ بيت جدّه لأبيه. ومنذ ذلك الحين فصاعداً راح يستخدم **رأس المال** - أو تلك الأجزاء التي تلائم أغراضه من هذا الكتاب - مثل سكين يهاجم بها خصومه. (قال مكسيم غوركي عن خطابات لينين إنها تتّسم بذلك "اللمعان القاسي الذي يتّسم به نثار الفولاذ"). ومع أنّ كتابه الأساسي الأول، **تطور الرأسمالية في روسيا**، كان قد قُدِّم كنوع من الملحق لكتاب ماركس، إلاّ أننا لا نجد فيه أيّ شيء من تلك السخرية وذلك السخط اللذين نجدهما في **رأس المال**. وكما لاحظ إدموند ولسون، فإنَّ "كتابة لينين هي كتابة وظيفيّة برمّتها؛ تهدف إلى تحقيق غَرَضٍ مباشر... فهو ببساطة رجلٌ يريد ان يُقْنِع". وكان الغرض المباشر لكتابه **تطور الرأسمالية في روسيا** أن يُقْنِع رفاقه بأنَّ بلادهم قد

خرجت من الإقطاعية بفضل الانتشار السريع الذي انتشرته السكك الحديدية، ومناجم الفحم، ومصانع الحديد، ومصانع النسيج في ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته. صحيحٌ أنّ البروليتاريا الصناعية لا توجد إلاّ في موسكو وسان بطرسبورغ، إلاّ أنّ هذا يزيد من ثقل تلك المهمة الملقاة على عاتقها في أن تلعب دورها كطبقة طليعية تعبّر عن مظالم الفلاحين والحرفيين أيضاً. ففي المصانع الجديدة، كما قال، "تطور الاستغلال تماماً وبرز في شكله الصريح، دون أيّ تفاصيل مُربِكة أو مشوِّشة. فلا يسع العامل إلا أن يرى اضطهاده من قبل رأس المال... وهذا هو السبب في أنّ العامل في المصنع ليس سوى الممثّل المتقدّم لجميع السكان المستغلّين". غير أنّ لينين أضاف في كرّاسه: **ما العمل؟** أنَّ انشغال العمال الزائد بكفاحهم الاقتصادي يعيقهم عن تطوير وعي ثوري صحيح:

> **هنالك كلام كثير على العفوية. لكن تطور حركة الطبقة العاملة العفوي يؤدّي إلى خضوعها للإيديولوجيا البرجوازية؛ ذلك أنّ حركة الطبقة العاملة العفوية هي النزعة النقابيّة، والنزعة النقابية تعني استعباد العمال الإيديولوجي للبرجوازية. ولذلك فإنّ مهمتنا، مهمة الديمقراطية الاجتماعية، هي محاربة العفوية، وتحويل حركة الطبقة العاملة**

عن هذا الكفاح النقابي، العفوي الذي يضعها تحت جناح البرجوازية، والإتيان بها تحت جناح الديمقراطية الاجتماعية الثورية.

فالحملات الجماهيرية الرامية إلى تحسين شروط العمل وتقصير مدّته، مما دافع عنه ماركس في **رأس المال**، تُنْبَذ عند لينين بوصفها مضيعة للوقت. وبدلاً من ذلك، على العمال أن يضعوا أنفسهم في تصرّف ثوريين محترفين مثله هو نفسه: "فالحركة الاشتراكية المعاصرة لا يمكن أن توجد إلا على أساس معرفةٍ علمية عميقة... وحملة هذا العلم ليسوا البروليتاريا بل الإنتلجنسيا البرجوازية". ويمكن للمرء أن يرى في هذه الجملة شكلاً جنينياً لما سيغدو في النهاية ضرباً من الطغيان المُريع.

وبوصفه حامل **الوصايا العشر** الذي عيّن نفسه بنفسه، فإنَّ لينين كان يروقه أن يذكّر الرفاق بمكانتهم الفكرية المتدنية. وقد كتب في **الدفاتر الفلسفية**: "من المستحيل فهم كتاب ماركس **رأس المال** وخاصةً فصوله الأولى دون دراسةٍ وفهمٍ دقيقين ل **منطق هيغل برمّته**. ولذلك، بعد أن مضى نصف قرن، لا أحد من الماركسيين يفهم ماركس". إلا هو، بالطبع. غير أنَّ ما كان لدى لينين من "معرفةٍ علمية"، على الرغم من كلِّ ما قرأه وما كتبه، لم يكن يتجاوز في عمقه ما اقتضته الحاجة. وإليكم هذا التقويم الحاد الذي قدّمه تروتسكي، وهو من أتيحت له فرصة أن يرصد لينين عن قرب:

يظهر ماركس بأكمله في البيان الشيوعي، في نقد الاقتصاد السياسي، في رأس المال. وحتى لو لم يُقَيَّض له قطّ أن يغدو مؤسِّس الأممية الأولى، لكان بقي على مرّ الأزمان تلك الشخصية التي نعرفها اليوم. أما لينين بأكمله، من جهة أخرى، فيظهر في العمل الثوري. وأعماله العلمية ليست سوى توطئة للنشاط.

ولعلّها لا ترقى حتى إلى مستوى التوطئة. فقد كتب لينين في العام 1917 : "إنَّ الاستيلاء على السلطة هو هدف الانتفاضة. أمّا مهمّتها السياسية فسوف تُوضَّح بعد الاستيلاء". ويشير المؤرّخ برترام وولف إلى أنَّ هذا كفيلٌ بأن يقلب ماركس رأساً على عقب: فالقناعة الماركسية بأنَّ الاقتصاد هو الذي يحدّد السياسة في نهاية المطاف "تغدو وجهة النظر اللينينية التي مفادها أنّ السلطة ذاتها، السلطة السياسية العارية، مع قَدْرٍ كافٍ من العزم، يمكن أن تفلح تماماً في أن تحدد الاقتصاد". ولا عجب من أنَّ العقيدة التي سادت الاتحاد السوفييتي قد اتّخذت اسم **الماركسية- اللينينية**، بدلاً من **الماركسية** وحسب. فشعار ماركس المفضّل كان de omnibus dubitandum (الشكّ في كلّ شيء")، غير أنّ أحداً من الذين حاولوا ممارسة ذلك في روسيا الشيوعية لم يُكْتَب له البقاء الطويل. والماركسية كما مارسها ماركس نفسه لم تكن إيديولوجيا بقدر ما كانت عمليةً نقدية. وحجاجاً ديالكتيكياً

متواصلاً؛ أما لينين ومن بعده ستالين فقد حوّلاها إلى عقيدة جامدة. (كما فعل قبلهم، بالطبع، عددٌ من الاشتراكيين الاخرين. ففي أيار 1894، اشتكى إنجلز لفريديريش أدولف زورغه، المهاجر الألماني في نيويورك، قائلاً: "الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي هنا يشاطر اشتراكييكم الألمان الأميركيين ميزة أنهما الحزبان الوحيدان اللذان تدبّرا أمر اختزال النظرية الماركسية في التطور إلى أرثوذكسية صارمة. وبات على هذه النظرية أن تُقْحَم في حلاقيم العمال دفعةً واحدةً ومن غير تطوير كأنها بنود إيمان، بدلاً من رَفْع العمال أنفسِهِم إلى مستواها انطلاقاً من غريزتهم الطبقية الخاصة. وهذا هو السبب في أنّ هذين الحزبين يبقيان مجرّد طائفتين، ويطلعان من لا شيء، كما يقول هيغل، عبر لا شيء إلى لا شيء"). بل إنّ بمقدور المرء أن يرى أنَّ أحقّ إنجاز ماركسي أنجزه الاتحاد السوفييتي كان انهياره: حيث أثبت الاقتصاد الأوامري المركزي الكتوم والبيروقراطي أنه لا ينسجم مع قوى الإنتاج الجديدة، ممّا عجّل بحصول تغيّر في علاقات الإنتاج. وقد اعترف ميخائيل غورباتشوف بذلك عام 1987 في كتابه **بيريسترويكا**:

> **النظام الإداري الذي اتّخذ شكله في الثلاثينيات والأربعينيات (من القرن العشرين) راح يتناقض شيئاً فشيئاً مع حاجات التقدم الاقتصادي وشروطه. فاستُنْفِدَت طاقته الإيجابية. وغدا عقبة على نحوٍ**

متزايد، وأدّى إلى نشوء آليةٍ كابحةٍ سبّبت لنا بعد ذلك كثيراً من الضرر...

هذه هي الظروف التي تطور فيها موقف متحيّز من دور العلاقات السلعية-النقدية وقانون القيمة في ظلّ الاشتراكية، وغالباً ما زُعِمَ أنّ ذلك مناقضٌ للاشتراكية وغريبٌ عنها. وقد تضافر كلٌّ ذلك مع التقليل من قيمة حساب الربح والخسارة، وأدّى إلى فوضى في التسعير، وإهمالٍ لتداول النقود... وظهرت علامات متزايدة باطّراد على اغتراب الإنسان عن ملكية الشعب بأكمله، وعلى غياب التنسيق بين المصلحة العامة ومصالح الشخص العامل الخاصة.

وكانت الصين، التي غدت "جمهوريةً للشعب" في العام 1949، أكبر بلد بعد روسيا، يعلن أنّه شيوعي. وفي حين ركّز ماركس ولينين على البروليتاريا المدينية، رأى ماوتسي تونغ أنّ فلاحيّ الريف يمكن أن يكونوا قوةً ثورية إذا ما سدّد خطاهم قادةٌ "مستقيمون" مثله هو نفسه. وإذ تحاشى ماو أنموذج التصنيع السريع السوفييتي، أعطى تطوير الريف وتنميته الأولوية العليا، وألهم بذلك كثيراً من الماركسيين في بلدان العالم الثالث الذي لم يكن فيه أيّ صناعةٍ جديرةٍ بهذا الاسم. لكن البرنامج الماويّ كان كارثةً بالنسبة للفلاحين الصينيين: وذلك أنّ **القفزة الكبرى إلى الأمام**، وهي خطّة

رَمَتْ إلى إضفاء الطابع الجماعيّ على الزراعة وتعزيز الصناعات الريفية ضيّقة النطاق، جرّت في أعقابها الجوع الجماعي وجرى التخلّي عنها بعد عامين من إطلاقها. وقد تزامن ذلك مع شقاق بين الصين والاتحاد السوفييتي، حيث سخر نيكيتا خروتشيف من **القفزة الكبرى** وردّ عليه ماو واصفاً إيّاه بـ "الأفّاق الرأسمالي". غير أنّه ما إنْ مات **قائد الدفّة العظيم** في العام 1976 حتى انطلقت الصين في الطريق الرأسمالي، وغدا اقتصادها الاقتصاد الصناعي الأسرع نمواً في العالم مع استمرارها في الإشارة إلى أنّ ما بلغته إلى الآن هو في الحقيقة "المرحلة الأوليّة من الاشتراكية". وعلى الرغم من تخلّي الحكومة في بكّين عن كلّ عظات ماو، إلاّ أنها تواصل تعريف ذاتها بأنها ماركسية-لينينية، مع أنّ "الماركتية-اللينينية" قد يكون التعريف الأنسب.

ومثل المسيحية بطوائفها المتنافسة التي لا حصر لها، ظهرت الماركسية في هيئاتٍ كثيرةٍ مختلفة على نحوٍ لافت بل ومتنافرة في الظاهر: البلاشفة والمناشفة، السبارتاكيون والتنقيحيون، الستالينيون والتروتسكيون، الماويون والكاستروين، الشيوعيون الأوروبيون والوجوديون. وكان ماركس نفسه قد تنبّأ، برضوخٍ قاسٍ، أنَّ "ماركسيين" سوف ينطقون باسمه باطلاً بعد وفاته بزمن طويل وبعد أن يكون قد فقد الموقع الذي يمكّنه من الاحتجاج. وأشهر ما عبّر به عن يأسه إزاء المريدين الضالّين كان توبيخه أحد

الاشتراكيين الفرنسيين في سبعينيات القرن التاسع عشر: إذا ما كان أمثال هذا الاشتراكي ماركسيين، قال ماركس في حسرة، "كلُّ ما أعرفه هو أنني لستُ ماركسياً". ولعلّه لم يكن ماركسياً، بالفعل. فقد كشف تاريخ القرن العشرين أنَّ احتمال الثورة الماركسية كان أكبر في بلدان لا تتمتّع باقتصاد صناعيّ متقدّم، أو طبقةٍ رأسمالية، أو جيش ضخم من البروليتاريين الذين يكسبون قوتهم من خلال بيع قوة عملهم. ومن هنا تلك المفارقة التي لاحظها الباحث الماركسي ديفيد مكليلان عام 1983، حين كان ما يقارب نصف العالم لا يزال محكوماً من قِبَلِ أنظمة تدّعي أنّها وريثة ماركس:

> **ما تعنيه حقيقةُ أنّ الماركسية لم تنتصر في الغرب هو أنّها لم تتحوّل إلى إيديولوجيا رسمية وأنّها لذلك موضوع دراسة جدّية لا تحول دونها ضروب السيطرة الحكومية. فأوروبا الغربية وأميركا على وجه الدّقة - أي البلدان الرأسمالية - هي الأمكنة التي يُدْرَس فيها ماركس بأشدّ الحرص. ومن الإنصاف القول أنَّ في الغرب من الماركسيين الفعليين أكثر مما في عدد كبير من البلدان التي توصف بأنها "ماركسية".**

ففي الدول الشيوعية من ألبانيا إلى زيمبابوي، كانت الحكومات هي التي تضع التعريف المحلي للماركسية دون حاجةٍ

لمزيد من النقاش (بل بمنع هذا النقاش في حقيقة الأمر). أما في الغرب، فقد غدا معنى الماركسية موضع حجاج صاخب وإعادةِ تقويمٍ حاذقةٍ في آنٍ واحد. فأعمال ما يدعى ب **مدرسة فرانكفورت** في ثلاثينيات القرن العشرين - ومن أعلامها كلٌّ من ماكس هوركهايمر، وثيودور أدورنو، وهربرت ماركوزه - أدّت إلى ولادة فصيلة جديدة من الفلسفة الماركسية عُرِفَت باسم "النظرية النقدية"، ورفضت ما وجدته من حتميةٍ اقتصاديةٍ لدى لينين والبلاشفة. كما ساءلت **مدرسة فرانكفورت**، ومفكّرون آخرون من تلك المرحلة مثل أنطونيو غرامشي، المواقف الماركسية التقليدية المتعلّقة بالوعي الطبقي البروليتاري. فالرأسمالية، تبعاً لغرامشي، تحافظ على هيمنتها من خلال تضليل الطبقة العاملة أو إجبارها على قبول الثقافة البرجوازية على أنّها المعيار، الذي يمكّن لقيم وممارسات معينة بينما يُقْصي قيماً وممارسات أخرى. وعلى العمال، لكي يتحدّوا هذا الإجماع ويطيحوا بمزاعمه، أن يطوّروا ثقافةً "مهيمنةً مضادةً" خاصةً بهم عبر أنظمة التعليم الشعبي الجديدة.

ولذلك فقد ألحّ الماركسيون الغربيون أشدّ الإلحاح على الأهمية التي يحظى بها في العملية السياسية ما دعاه ماركس بالبنية الفوقية - الثقافة، والمؤسسات، واللغة- لدرجة أنّ النظر في الأساس الاقتصادي أو أخذه في الحسبان اختفى تماماً في بعض

الأحيان. ولأنّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على تغيير العالم، فقد ركّزوا على تفسيره عبر ما صار يُعْرَف باسم "الدراسات الثقافية"، التي رسّخت هيمنتها في كثير من الجامعات في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وغيّرت في دراسة التاريخ، والجغرافيا، وعلم الاجتماع، والأنثربولوجيا، والأدب. بل إنَّ الليبيدو ذاته كان موضع تمحيص ماركسي. وحاول الطبيب النفساني فِلْهِلم رايش أن يوفّق بين ماركس وفرويد مشيراً إلى أنّ العمال لا يمكن أن يكونوا أحراراً حقاً ما لم يتحرّروا من الكبت الجنسيّ وطغيان البنى العائلية التقليدية (مع أنّ ماركس نفسه كان قد نبذ الحبّ الحرّ بوصفه أمراً "بهيمياً"، يكافئ "البغاء العموميّ"). وفي كتابه **الإنسان ذو البعد الواحد** (1964)، كتب هربرت ماركوزه، مرجع **اليسار الجديد**: "لقد اندمج الجنس بعلاقات العمل والعلاقات العامة وجُعِل بذلك أكثر عرضةً للإشباع (المضبوط). فالتقدم التقني والعيش الرغيد يتيحان احتواء المكوّنات الليبيدية ذلك الاحتواء المنهجي في مجال إنتاج السلع وتداولها".

هكذا باتت حدود المجال المشار إليه أوسع بكثير مما تخيّله ماركس في أيّ يوم من الأيام. وبات يضمّ أيّ ضَرْبٍ من السلع الثقافية، فزوجٌ من الأحذية المدبّبة من الأمام، وصورة فوتوغرافية في صحيفة، وتسجيل لموسيقا البوب، وعلبة من الحبوب المُعَدَّة للفطور باتت جميعاً "نصوصاً" تمكن "قراءتها". وبالتدريج راحت

تحلّ محلّ نقد الثقافة الجماهيرية الذي اجترحه المنظّرون الأوائل الذين تأثّروا بـ **مدرسة فرانكفورت** دراسة السّبُل المختلفة التي يستقبل بها البشر هذه النصوص اليومية ويفسّرونها. ومع اتخاذ الدراسات الثقافية تلك "الانعطافة اللسنية" التي اتخذتها -وطوّرتها من خلال البنيوية، وما بعد البنيوية، والتفكيك، وما بعد الحداثة- غالباً ما بدت هذه الدراسات على أنّها طريقة لتفادي السياسة كلياً، مع أنَّ كثيراً من أصحابها لا يزالون يطلقون على أنفسهم اسم الماركسيين. والمنطق الذي يقف خلف ما يبديه هؤلاء من إلحاح لعوب على أنّه ما من يقينيات أو وقائع هو منطقٌ أدّى في النهاية إلى نزعةٍ نسبوية عائمة، وخالية من أحكام القيمة يمكن أن تحتفي بكلٍّ من ثقافة البوب والخرافات القروسطية دون تردّد أو ارتباك. وعلى الرغم من ازدراء السرديات التاريخية الكبرى وقوانين الطبيعة العامة، بدا أنَّ الكثيرين يتقبّلون ذلك النجاح الدائم الذي تحقّقه الرأسمالية بوصفه حقيقة حياتية ثابتة. أمّا دوافع هؤلاء الهدّامة فقد وجدت ملاذاً لها في الفضاءات الهامشية حيث تبدو هيمنة المنتصرين أقلّ أمناً: ومن هنا ذلك الحماس لما هو غرائبيّ وجسديّ، من نظريات المؤامرة المرتبطة بالأجسام الطائرة المجهولة إلى ضروب الفيتش السادومازوخية. وقد حلّ الافتتان بلذائذ الاستهلاك (المسلسلات التلفزيونية الخفيفة، ومتاجر التسوّق، وخلائط السوق الجماهيرية) محلّ التركيز التقليدي على شروط

الإنتاج المادي. وكانت عاقبة ذلك، تبعاً للناقد الماركسي تيري إيغلتون، "تضخّم لغويّ هائل، لأنّ ما بدا وكأنّه لم يَعُدْ قابلاً للتصوّر في الواقع السياسي كان لا يزال ممكناً في ميادين الخطاب أو العلامات أو النصيّة. فحريّة النصّ أو اللغة تعوّض عن غياب حرية النظام ككلّ". أمّا العدو الجديد، كما يقول إيغلتون، فقد أصبح "أنظمة الاعتقاد المتماسكة مهما يكن نوعها، خاصة أشكال النظرية والتنظيم السياسيين التي سعت إلى تحليل بنى المجتمع ككل والعمل عليها. فقد بدا أنّ مثل هذه السياسة على وجه الضبط هي التي أخفقت". ولم يعد من الممكن القيام بأيّ نقد منهجي للرأسمالية الاحتكارية لأنّ الرأسمالية ذاتها هي قصّة متخيّلة، شأنها شأن الحقيقة، والعدالة، والقانون وجميع "البناءات اللغوية" الأخرى.

وقد يتساءل المرء، إلى أين يصل هذا بكارل ماركس، الذي كابد ليقدّم مثل هذا النقد المنهجي على وجه التحديد؟ فقد بدا المنظّرون سعداء وهم يفكّكون الإعلانات التلفزيونية وأغلفة الحلويات ونافرين على نحوٍ لافت من أن يعملوا مباضعهم في نصّ **رأس المال**، ربما بسبب الخوف من ارتكاب ضَرْبٍ أدبيّ من قتل الأب. يقول المؤرّخ ما بعد الحداثي دومينيك لاكابرا إنّ **رأس المال** "ربما كان المثال الصارخ على نصٍّ مُعْتَمَد ومُكَرَّس يحتاج إلى إعادة قراءة وليس إلى قراءة حرفية، ومباشرة تتمسّك بصوت المؤلّف الموحّد والمحض".

ولعلّ قـراءة "رأس المال" (1965)، تلك المجـمـوعـة من المقـالات التي كـتـبهـا لوي ألتـوسـر وبعض تلامذته، أن تكون إعـادة التقـويم الأبرز على هذا الصـعـيـد، وهـي تبـدأ بهـذا الكشف عن النيّـة أو القصد:

لقد قرأنا "رأس المال" جميعاً، ونقرأه. وعلى مدى قرن، كان بمقـدورنا أن نقـرأه كل يـوم، على نحـوٍ شـفـافٍ، في احـتـدامات تاريخنا وأحـلامـه، في نزاعاته وصراعاته، في هزائم وانتـصـارات حـركـة العـمـال التي هي أملنا الوحيـد ومصيرنا. منذ أن "جئنا إلى الدنيا"، ونحن نقرأ "رأس المال" في كتابات وخطب أولئك الذين قرأوه لنـا، على نحـوٍ حـسـن أو سـيّـئ، سـواء كـانوا أمـواتاً أم أحـيـاء، إنجلز، كـاوتسكي، بليـخـانوف، لينين، روزا لوكـسـمـبـورغ، تروتسكي، سـتـالين، غـرامـشي، قـادة المنظّمات العمالية، أنصارهم وخصومهم: فلاسفة، واقتصاديون، وسياسيون. وقد قرأنا أجزاء منه، تلك "الشذرات" التي "اختـارها" لنا الظرف. بل إننا قرأنا جـمـيـعـاً، إلى هذا الحـدّ أو ذاك، المجلّد الأول، من "السلع" إلى "نزع ملكية نازعي الملكية".

غـيـر أنّه من الأسـاسـي في يومٍ مـا أن نقـرأ "رأس المال" بالمعنى الحرفيّ. أن نقرأ النصّ ذاته...

وألتوسر، مثل أيّ قارئ آخر، يأتي إلى مهمّته الشاقّة وهو يضع نظّارة تُثْبِتُ وصَفَتَهُ الخاصة. فهو أول من ألحّ على أنَّ هنالك هوّة لا يمكن تجسيرها -"قطيعةً أبستمولوجيةً"- بين ماركس أريعينيات القرن التاسع عشر والرجل الذي كتب **رأس المال** بعد عشرين عاماً من ذلك. وبخلاف جان بول سارتر، الذي وجد في الكتابات الفلسفية الباكرة ذلك الإلهام الخصب الذي ألهمه صياغة الماركسية كتاريخٍ للانعتاق الذاتي الإنساني، فإنَّ ألتوسر استهجن اهتمام ماركس الشاب بالأخلاق، والاغتراب و"الفاعلية الإنسانية". فالتاريخ، عند ألتوسر، هو "سيرورة دون ذات" ولذلك فهو غير جدير بالدراسة أو التحليل: فالأفراد لا يمكنهم، حتى بصورة جمعية، أن يفرّوا قطّ أو يتحدّوا قوى **أجهزة الدولة الإيديولوجية** المجرّدة عما هو شخصيّ - التربية، الدين، العائلة - والتي تُنْتِج منظومة الاعتقاد السائدة وتحافظ عليها.

فألتوسر لا ينقذ ماركس من الحتمية الاقتصادية التي فرضها عليه لينين وخلفاؤه إلاّ لكي يقيّده في سترة مجانين ضيقة بالمثل. فهو في قراءة "**رأس المال**" يختزل رائعة ماركس إلى عمل علمي محض، لا تشوبه أيّ شائبة هيغليّة، وذلك على الرغم من إقرار المؤلّف عن طيب خاطر بما يدين به لهيغل، خاصةً في الفصل الأول حول السلع. وهكذا باتت الماركسية مجرد نظريةٍ في الممارسات البنيوية، منفصلةً عن السياسة، والتاريخ، والتجربة.

وتبعاً لمنطق ألتوسر اللا إنسانويّ فإنّ من غير الممكن أن نحمّل البشر مسؤولية أعمالهم، وهي الحجّة التي استغلّها هو ذاته بعد سنوات لكي يحلّ نفسَهُ من أيّ ذنبٍ إثْرِ قَتْلِهِ زوجته. كما أنّها الحجّة التي عملت، على النطاق الأوسع، على تبرئة **الحزب الشيوعي** (الذي كان ألتوسر عضواً قديماً فيه): فالقتل الجماعي في الاتحاد السوفييتي ليس جريمة، بل مجرّد خطأ نظري، أو "شكل جديد من "الوجود اللاعقلاني للعقل"، بحسب التعابير الرقيقة الشنيعة التي استخدمها ألتوسر لوصف الستالينية. ولقد سبق للمؤرّخ الماركسي إ. ب. تومسن أن قال في كتابه الجداليّ المفعم بالحيوية **بؤس النظرية** (1979): "يمكن أن نرى إلى ظهور الألتوسرية كتجلٍّ لفعلٍ بوليسي عام ضمن الإيديولوجيا، وكمحاولة لإعادة الستالينية على مستوى النظرية". وأضاف أنّ إلحاح ألتوسر على ماركسيةٍ مفاهيميةٍ تماماً، غير ملوّثةٍ بالتاريخ أو التجربة، يكشف عن أنّه رجلٌ "ليس لديه سوى معرفةٍ عابرةٍ بالممارسة التاريخية"، ذلك أنّ التجربة، في العالم الواقعي، تثبت مرّة بعد مرّة أنها "تدخل من غير استئذان وتعلن عن ميتاتٍ وأزماتٍ فعليةٍ ومهمّة". ولقد كان ذلك أكثر صحّةً مما اعتقد تومسن نفسه. فقد أُميطَ اللثام عن كامل جهالة ألتوسر في مذكّراته التي نُشِرت بعد وفاته، **يدوم المستقبل إلى الأبد** (1994)، حيث يعترف بأنّه "محتال ومخادع" كان يخترع المقبوسات في بعض الأحيان لكي تلائم

غَرَضه. "في حقيقة الأمر، كانت معرفتي الفلسفية بالنصوص محدودة إلى حدٍّ بعيد. لم أكن... أعرف سوى القليل عن سبينوزا، ولم أكن أعرف شيئاً عن أرسطو، والصوفيين والرواقيين، وكنت أعرف الكثير عن أفلاطون وباسكال. ولا أعرف شيئاً عن كانط، ولا أعرف سوى أقلّ القليل عن هيغل، ولا أعرف أخيراً، سوى بضع مقاطع من ماركس".

فكيف استطاع، إذاً، أن يفلت بذلك؟ إنّ شرحه للحيلة السحرية التي كان يستخدمها هو ذلك الشرح الصريح على نحوٍ لافت:

> **كانت لديّ مقدرة خاصة أخرى. فحين أبدأ بتعبيرٍ بسيط، كنتُ أحسب أنني أستطيع أن أغيّر (ويا له من وهمٍ!)، إنْ لم يكن الأفكار الخاصة لمؤلِّفٍ أو كتابٍ لم أقرأه، فعلى الأقلّ معناه العام أو وجهته. كانت لديّ قدرات حدسية معينة واضحة فضلاً عن قدرةٍ بيّنةٍ على رؤية الصلات أو الروابط، أو قدرة على إنشاء تقابلات نظرية، تمكّنني من إعادة بناء ما أعتبره أفكار المؤلّف على أساس من مؤلِّفين يعارضهم. وكنت أواصل بصورةٍ عفوية من خلال إقامة ضروب من التعارض والفرق، لأعمل تالياً على إحكامِ نظريةٍ تدعم ذلك.**

وبفضل هذه القدرات الحدسية، فإنَّ ثمّة ومضاتٍ من التبصّر تضيء قراءة "**رأس المال**" مع أنَّ ألتوسر لم يدرس سوى بضع مقاطع

من ماركس. فهو يقترح أن نرى إلى **رأس المال** على أنّه "إجابة مهمة عن سؤال **لم يُطْرَح في أي مكان**، إجابة لم يفلح ماركس في صياغتها إلا بشرط مضاعفة الصور اللازمة لتغييرها... فالعصر الذي عاش فيه ماركس لم يوفّر له، ولم يستطع هو أن يكتسب خلال حياته، ذلك المفهوم الكافي لأن يفكّر بواسطته بما أنتجه: **مفهوم الفعالية التي تمارسها بنيةٌ على عناصرها**".

وبعبارة أخرى، فقد نصب ماركس فخّاً متفجّراً موقوتاً، وانتظر أحداً ما أن يطرح السؤال الذي سبق له أن أجاب عنه. وهذا تؤكّده رسالة بعث بها إلى إنجلز ما إنْ أكمل المجلد الأول عام 1867، تنبّأ فيها باعتراضات "الاقتصاديين المبتذلين" على **رأس المال**: "لو رغبتُ في أن أدحض مسبقاً مثل هذه الاعتراضات جميعها، لكنتُ أفسدتُ منهج العرض الديالكتيكي برمّته. وبالمقابل، فإنّ الشيء الحسن في هذا المنهج هو انّه ينصّب الأفخاخ لدى كلّ خطوة يخطوها هؤلاء الأشخاص مما يضطرهم إلى إظهار غباوتهم في غير أوانها". مرّة أخرى، لا يسع المرء إلاّ أن يتذكّر تلك اللسعة الساخرة في **التحفة المجهولة** لبلزاك: فنقطة الضعف الوحيدة في رائعة الرسام الملطّخة، التي لاشكل لها، والتي تبدو كارثيةً هي أنّه أنجزها للتوّ لمئة سنة قادمة، ذلك أنها في واقع الأمر قطعة من الفن التجريدي الذي عرفه القرن العشرين. وكما كتب إدموند ولسون، فإنّ ماركس، بانتصاره للطبقات المحرومة ومحاصرته

حصن الرضا البرجوازي عن الذات، كان يجلب إلى الاقتصاد وجهة نظرٍ "كانت قيمتها في زمنه متناسبة تماماً مع غربتها عن ذلك الزمن".

غير أنّ الاقتصاديين المبتذلين لم يبدوا، على مدى نصف قرنٍ من صدور رأس المال سوى اهتمام ضئيل بدحض ماركس والردّ عليه، مفضّلين تجاهله. فقد نظروا إلى النظام الرأسمالي على أنّه ضرورة دائمة، لا مجرّد طور تاريخي عابر ينطوي في داخله على بذور اعتلاله النهائي. وفي حين تعامل ماركس مع الفائدة والربح والريع باعتبارها عملاً غير مدفوع الأجر، وصف الاقتصاديون الأكاديميون الفائدة التي يجنيها مالكو رأس المال بأنها "مكافأة التقشّف". فأولئك الذين يراكمون رأس المال بدلاً من إنفاقه وتبديده إنما يقومون، من وجهة نظر ألفرد مارشال، الشخصية البارزة في علم الاقتصاد البريطاني في أواخر العهد الفيكتوري وأوائل عهد إدوارد، ب "تضحية الانتظار"، ويستحقون لذلك تعويضاً عن إحجامهم الفاضل.

ورأى الاقتصاديون الأرثوذكس أنّ لا مجال لحدوث فرط الإنتاج، الذي اعتبره ماركس سمة أساسية من سمات الرأسمالية. ذلك أنَّ العرض، تبعاً لقانون الأسواق الذي وضعه ساي، يخلق طلبه الخاص: فالمكاسب الناجمة عن إنتاج سلع معينةٍ وبيعها يوفّر القوة اللازمة لشراء أخرى. وهذه الآلية التي تتّسم بالتصويب الذاتي هي

التي تضمن أيضاً ألاّ تتعدّى البطالة قطّ كونها مجرّد شائبة وجيزة وعارضة. فالعاطلون يبدون استعداداً للعمل بأجور منخفضة؛ وانخفاض الأجور الناجم عن ذلك يخفّض أسعار السلع التي ينتجونها، الأمر الذي يعمل بدوره على زيادة الطلب على البضائع وزيادة مبيعاتها، مما يمكّن من العودة إلى العمالة الكاملة.

بيد أنّ الاضطراب الاقتصادي والبطالة الثقيلة بين الحربين العالميتين كانا كفيلين بأن يدفعا إلى إعادة النظر، وإلى اعتراف متأخّر بأنّ الرأسمالية قد تكون منطوية في حقيقة الأمر على ضروب من الخلل منهجية. بل إنّ بعض الاقتصاديين راحوا يتساءلون ما إذا كانت الرأسمالية أبدية وثابتة حقّاً. ففي دراسته التي تعود إلى عام 1939، **القيمة ورأس المال**، شكّك البروفسور جون هيكس في أن "يكون بمقدور المرء أن يعوّل على البقاء المديد لأيّ شيء مثل النظام الرأسمالي" بغياب اختراعات جديدة قوية بما يكفي لأن تحافظ على الاستثمار. وأضاف أيضاً أنه "ليس بمقدور المرء أن يكبت الفكرة التي مفادها أنّ الثورة الصناعية بأكملها خلال القرنين الماضيين ربما لم تكن أكثر من رواجٍ أو انتعاش دنيوي هائل". أمّا ج. م. كينز، الذي وُلِدَ في سنة وفاة ماركس، فقد كتب في **نظرية عامة في العمالة والفائدة والنقود** (1936): "إنني أنظر إلى الجانب المتعلق بصاحب الإيراد من جوانب الرأسمالية على أنّه طور انتقالي سوف يختفي عندما ينجز عمله".

وكينز، الاقتصادي الأشدّ نفوذاً في القرن العشرين، كان قد تحدّى التصوّر الذي مفاده أن رأسمالية **دعه يعمل** تتّسم بميلٍ طبيعي إلى التوازن الذاتي. فالفكرة التي ترى أنّ البطالة تخفّض الأجور وبذلك تستعيد العمالة الكاملة هي فكرة قد تصحّ على الشركات أو المصانع الفردية. أمّا إذا انخفضت جميع الأجور، فإنَّ جميع المداخيل سوف تنخفض وسوف يركد الطلب، فلا يعود لدى أرباب العمل ذلك الحافز إلى استئجار مزيدٍ من العمل. وكما تقول الاقتصادية الكينزية جوان روبنسون: " في حَشْدٍ، يمكن لأيّ أحد أن يرى ما يجري بصورة أفضل إذا ما وقف على كرسي. أمّا إذا وقف الجميع على كراسي فلن يكون بمقدور أحد أن يرى بصورة أفضل".

قبل كينز، كان معظم الاقتصاديين قد تعاملوا مع أزمات الرأسمالية العابرة على أنها انحرافات يمكن تجاهلها. أمّا هو فقد نظر إليها على أنها الإيقاع الذي لا مفرّ منه لنظام مزعزع، شأنه في ذلك شأن ماركس. غير أنّ كينز نبذ ماركس معتبراً إيّاه شخصاً غريباً "من عالم الفكر الاقتصادي السفلي". ونظرياته "بعيدة عن المنطق، بَطُلَ استعمالها، خاطئة علمياً، وبلا أهمية أو إمكانية للتطبيق في العالم الحديث". والحال، أنّ عنف هذه الإدانة يبعث على الدهشة، نظراً للتشابه بين نقد ماركس للاقتصاديين الكلاسيكيين وانتقاد كينز لخلفائهم الكلاسيكيين الجدد. وكما قالت جوان روبنسون عام 1948:

لدى كليهما، تلعب البطالة دوراً أساسياً. وكلاهما ينظران إلى الرأسمالية على أنها تحمل في داخلها بذور فسادها. ونظاما كينز وماركس يقفان معاً، في جانبهما السلبيّ، ضدّ نظرية التوازن الأرثوذكسية، وثمة الآن، لأوّل مرّة، تلك القاعدة المشتركة التي تكفي لأن تجعل النقاش ممكناً بين الماركسيين والاقتصاديين الأكاديميين. وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نجد بين الاقتصاديين الأكاديميين الإنجليز إلاّ أقلّ قَدْرٍ من دراسة ماركس تلك الدراسة الجديّة.

لا شكّ أنّ بعض هؤلاء قد أحجموا عن هذه الدراسة بسبب كثافة أسلوبه. وعلى الرغم من إشادة روبنسون نفسها بضروب الألفة الوثيقة بين كينز ونظرية ماركس في الأزمات في المجلد الثاني من **رأس المال**، إلا أنها اعترفت بما ارتكبته من "مبالغةٍ في الإلحاح على التشابه. فالمجلدان الأخيران من **رأس المال**... مفرطان في غموضهما وقد خضعا لتأويلاتٍ كثيرة. فالمياه مظلمة ولعلّ كلّ من يحدّق فيها لن يرى سوى وجهه وحسب".

غير أنّ السبب الأساسي الذي يقف خلف تجاهل الصلة بين ماركس وكينز - بل خلف تجاهل ماركس برمّته - ربما كان سبباً سياسياً. فكينز نفسه كان ليبرالياً وليس اشتراكياً، وكان يعلن مفتخراً أنّ "الحرب الطبقية سوف تجدني في صفّ البرجوازية

المثقفة"، وقد غدت الكينزية أرثوذكسية جديدة بالنسبة للاقتصاديين والسياسيين الغربيين في أواسط القرن العشرين؛ أي على وجه الدقّة في الوقت الذي جعلت **الحرب الباردة** من اسم ماركس مرادفاً للعدو. ولذلك فإنّ قلّة وحسب من غير الماركسيين هي التي أرادت أن تتلطّخ بذلك الربط (بين ماركس وكينز).

ويُعَدُّ الاقتصادي المولود في النمسا، جوزيف شومبيتر، أكبر استثناء لتلك القاعدة. ومع أنّه لم يسبق أن كان للرأسمالية نصير يفوق في حماسه شومبيتر، الذي لا يزال بطلاً في نظرِ كثيرٍ من أصحاب المشاريع الأميركيين، إلا أنّ عمله الشهير **الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية** (1942) يبدأ بأربع وخمسين صفحة من تقويم منجزات ماركس ذلك التقويم السخيّ على نحوٍ غير متوقّع شأنه شأن إشادة ماركس بالبرجوازية في **البيان الشيوعي**. فهو يقرّ بأنّ ماركس، كنبيّ، قد عانى من "رؤية خاطئة وتحليلٍ مختلّ"، خاصةً في تنبؤه ببؤس العمال المتزايد. غير أن ماركس "رأى سيرورة التغيّر الصناعي بوضوح وأدرك كامل أهميتها المحورية أكثر من أي اقتصادي آخر في زمنه"، وغدا بذلك "أول اقتصادي من اقتصاديي الصف الأول يرى ويعلّم على نحوٍ منهجيّ كيف يمكن للنظرية الاقتصادية أن تتحول إلى تحليل تاريخي وكيف يمكن للسرد التاريخي أن يتحول إلى تفكير تاريخي". وما هي إلا بضع صفحات حتى يطرح شومبيتر السؤال: "هل يمكن للرأسمالية أن

تبقى؟" ويجيب: "لا. لا أحسب أنها تستطيع". وقد يبدو ذلك غريباً في كتابٍ أُريدَ له أن يكون دفاعاً متيناً عن روحية أصحاب المشاريع، ومن المؤكّد أنّ شومبيتر - بخلاف ماركس - لم يكن يسرّه مثل هذا الاستنتاج. ("حين يتنبأ الطبيب بأن مريضه سوف يقضي نحبه سريعاً، فإن ذلك لا يعني أنه يرغب في ذلك"). وكان يرى أن الابتكار الرأسمالي - لمنتجات جديدة، وطرائق جديدة في إنتاجها - هو قوة "دمار خلّاق" قد تغدو في النهاية بالغة النجاح، وتالياً بالغة التدمير، بحدّ ذاتها.

وفي العقد الأخير من القرن العشرين، بدت تحذيرات العرافين التي أطلقها كلٌّ من شومبيتر وماركس كأنها قد أُطيحَ بها. فبينما كانت الشيوعية تعاني سكرات الموت، بات بمقدور الرأسمالية الليبرالية أميركية الطراز أن تفرض سيطرتها دون منازع، ربما إلى الأبد. ففي العام 1989، أعلن فرانسيس فوكوياما أنَّ "ما نشهده ليس مجرّد نهاية **الحرب الباردة**، أو انقضاء مرحلة محددة من تاريخ ما بعد الحرب، بل نهاية التاريخ ذاته: أي النقطة النهائية من تطوّر البشر الإيديولوجيّ". غير أنَّ التاريخ لم يلبث أن ردّ منتقماً. ففي آب 1998، كان لانحلال الاقتصادي في روسيا، وانهيارات العملة في آسيا، وهلع السوق في أرجاء العالم أن تدفع **الفايننشال تايمز** لأن تتساءل ما إذا كنا قد انتقلنا "من انتصار الرأسمالية العالمية إلى أزمتها خلال عقد وحسب". وكان عنوان تلك المقالة "عودة إلى رأس المال".

وحتى أولئك الذين كسبوا الكثير من النظام راحوا يشككون في قابليته للحياة. ففي كتابه **أزمة الرأسمالية العالمية: مجتمع مفتوح مُعَرَّض للخطر** (1998) نبّه جورج سوروس، المضارب البليونير الذي أُنْحِيَ عليه باللائمة بسبب النكبات الآسيوية والروسية، إلى ضرورة السيطرة على غريزة القطيع لدى مالكي رأس المال قبل أن يطأوا بأقدامهم كلّ أحد آخر:

> **لا يبدي النظام الرأسمالي بحد ذاته أيّ ميل إلى التوازن. فمالكو رأس المال يسعون إلى تعظيم أرباحهم إلى أقصى حدّ. وإذا ما تركوا وشأنهم، فسوف يواصلون مراكمة رأس المال إلى أن يغدو الوضع غير متوازن. وقد قدّم ماركس وإنجلز قبل 150 عاماً تحليلاً جيداً جداً للنظام الرأسمالي، وهو تحليل ينبغي القول إنه أفضل من بعض النواحي من نظرية التوازن التي قدّمها الاقتصاد الكلاسيكي... والسبب الأساسي الذي حال دون تحقق نبوءاتهما هو ضروب التدخّل السياسي المضاد في البلدان الديمقراطية. والمؤسف أننا نواجه مرةً أخرى خطر التوصّل إلى استنتاجات خاطئةٍ من دروس التاريخ. لكن الخطر لا يأتي هذه المرة من الشيوعية بل من أصولية السوق.**

خلال **الحرب الباردة**، حين كانت الدول الشيوعية تبجّل أعمال ماركس كأنها كتاب مقدّس - كامل ومعصوم - كان أولئك الذين يقفون في الصفّ الآخر يشتمونه كأنّه وكيل الشيطان. غير أنه، مع انهيار جدار برلين، راح يكسب معجبين جداً في الأماكن الأبعد عن الاحتمال. ففي العام 1994، كتب الاقتصادي اليميني جود وانيسكي: "لا ينبغي أن نسارع إلى تهنئة أنفسنا على هزيمة ماركس، إلى جانب الماركسية. صحيح أنَّ مجتمعنا العالمي أكثر سلاسة بكثير مما كان عليه في أيامه، لكن سيرورة التجديد ليست مضمونة. وقوى الرجعة التي حدّدها على نحوٍ صائب ينبغي أن يتغلّب عليها كلّ جيلٍ لاحق، وهذه هي المهمة الضخمة التي تواجه جيلنا الآن". وكان وانيسكي، الذي سكّ عبارة "اقتصاد العرض"، قد استشهد بـ **رأس المال** بوصفه مصدر الإلهام الأساسي لنظريته في أنَّ الإنتاج وليس الطلب هو مفتاح الازدهار. فماركس، بوصفه نصيراً للتجارة الحرّة ومعيار الذهب، وعدواً للبيروقراطية، ومعجباً بروح الاندفاع وراء الذهب، هو "واحد من عمالقة النظرية والممارسة الكلاسيكيتين"، فضلاً عن كونه عرّافاً عبقرياً. فقد "اقترب من الحقيقة أشدّ الاقتراب" في إشارته إلى أنَّ الرأسمالية قد بَذَّرت بذور دمارها: "أي أنه إذا ما كانت الرأسمالية تقتضي التنافس، فإننا إزاء نظام غير قادر على البقاء أصلاً، شأنه شأن البهائم التي تلتهم صغارها".

وفي تشرين الأول من العام 1997 أجرى المراسل الاقتصادي في **النيويوركر**، جون كاسيدي، حديثاً مع مصرفيّ ومستثمر بريطاني يعمل في نيويورك، وقال هذا المصرفي: "كلما طال بي الوقت في وول ستريت، كنت أزداد اقتناعاً بأنّ ماركس على حقّ. ولقد مُنِحَت جائزة نوبل لاقتصادي بعث ماركس حيّاً وصاغه في نظريةٍ متماسكة، ولديّ قناعة مطلقة بأنَّ مقاربة ماركس هي الطريقة الأفضل في النظر إلى الرأسمالية". ولأنّ هذا أثار فضول كاسيدي، راح يقرأ ماركس لأول مرة وخلص إلى أنَّ صاحبه كان على حقّ. فقد وجد "مقاطع لافتة عن العولمة، وانعدام المساواة، والفساد السياسي، والاحتكار، والتقدّم التقني، وانحلال الثقافة الرفيعة، وطبيعة الوجود الحديث التي تبعث على الكسل والخمول، وهي قضايا راح الاقتصاديون يواجهونها مجدداً، دون أن يدركوا في بعض الأحيان أنهم يسيرون في أعقاب ماركس". وأشار كاسيدي، مستشهداً بالشعار الشهير الذي سكّه جيمس كارفيل لحملة بيل كلينتون الرئاسية عام 1992 ("إنه الاقتصاد، يا غبيّ")، إلى أنَّ "المصطلح الذي أطلقه ماركس على هذه النظرية هو "التصوّر الماديّ للتاريخ"، وهو يحظى الآن بقبولٍ واسع جداً ويستخدمه المحللون من كلّ الأطياف الساسية، مثل كارفيل، دون أيّ إشارة إلى صاحبه. فحين يرى المحافظون أنّ دولة الرفاهية قد لقيت حتفها لأنّها تخنق المشروع الخاص، أو أن الاتحاد السوفيتي انهار لأنه لم يستطع أن

يضاهي كفاءة الرأسمالية الغربية، فإنهم يتبنون وجهة نظر ماركس في أنَّ الاقتصاد هو القوة التي تدفع التطور الإنساني".

ومثل برجوازيّ مولبير النبيل، الذي اكتشف مذهولاً أنه كان يتكلم النثر منذ أكثر من أربعين عاماً دون أن يعلم، فإنَّ كثيراً من البرجوازيين الغربيين قد تشرّبوا أفكار ماركس دون أن يلحظوا ذلك قطّ. وكانت قراءةٌ متأخّرة لأعمال ماركس في تسعينيات القرن العشرين قد ألهمت الصحفي الماليّ جيمس بوكان وَضْعَ دراسته اللامعة، **رغبةٌ مجمّدة: بحث في معنى النقود** (1997). يقول بوكان:

> **إنَّ ماركس راسخٌ في قالب تفكيرنا الغربيّ لدرجة أنَّ قلّة وحسب هم الذين يعلمون مقدار دَيْنِهم إليه. فكلُ من أعرفهم الآن يعتقدون أنَّ مواقفهم هي إلى حدٍّ ما نتاج ظروفهم المادية - "أنَّ وجودهم الاجتماعي، على العكس، هو الذي يحدد وعيهم"، كما قال ماركس- وأنَّ التغيير الذي يعتري طرائق إنتاج الأشياء يترك تأثيره العميق على شؤون البشر حتى خارج الورشة أو المصنع.**
>
> **ولقد جاءتنا هذه التصورات من ماركس أكثر بكثير مما جاءتنا من الاقتصاد السياسي. وبالمثل، فإنَّ لدى**

كلّ من أعرفهم شعوراً بأنَّ التاريخ ليس مجرّد شيء لعين واحد يتلو شيئاً آخر... بل ضَرْبٌ من السيرورة يتحقق فيها على نحوٍ تقدميّ شيء إنساني ما: الحرية؟ السعادة؟ الطاقة الإنسانية؟ لكنه شيء جميلٌ، على أيّ حال. ومع أنَّ ماركس لم يولّد هذا الشعور، إلا أنه روّجه وجعله شائعاً.

حتى الصحفيان في **الإيكونوميست** جون مايكلثوايت وأدريان وولدريدج، المشجعّان المتلهّفان للرأسمالية النفّاثة، يعترفان بما يدينان به لماركس. فقد كتبا في كتابهما **مستقبلٌ تام: تحدي العولمة ووعدها المُضْمَر** (2000): "لعلّ ماركس قد آل إلى نهايته كنبيّ للاشتراكية، غير أنَّ بمقدوره، كنبيّ "لاعتماد الأمم المتبادل الكوني" كما أطلق على العولمة، أن يواصل ما يبدو عليه من أهميةٍ مذهلة... فوصفه للعولمة يبقى ثاقباً اليوم كما كان منذ 150 عاماً مضت". وما يخشاه هذان الصحفيان أشدّ الخشية هو أنَّ العولمة "كلما زاد نجاحها بدت وكأنها تستثير مزيداً من الاستثارة ما تنطوي عليه من ردّة فعل". وما يخشيانه، بعبارة أخرى، هو أن يكون ماركس محقّاً في إشارته إلى أنَّ "تطوّر الصناعة الحديثة... يسحب من تحت أقدام البرجوازية ذلك الأساس ذاته الذي يقوم عليه إنتاج البرجوازية للمنتجات وتملّكها إياها. ولذلك فإنَّ ما تنتجه البرجوازية، قبل كلّ شيء، هم حفّارو قبرها". فعلى الرغم من كلّ

ما يبديانه من الإحساس بالظفر والانتصار، يبقى لدى وولدريدج ومايكلثوايت شبهة مقلقة بأنَّ الدمار الخلاّق الذي أحدثته الرأسمالية العالمية "قد يكون له حدّه الطبيعي الذي يتوقف عنده، ولحظته التي لا يعود بمقدور البشر عندها أن يأخذوا المزيد".

لم يحصل سقوط البرجوازية وانتصار البروليتاريا. غير أن أخطاء ماركس ونبوءاته التي لم تتحقّق بشأن الرأسمالية تطغى عليها وتتخطّاها تلك الدّقة الثاقبة التي كشف بها عن طبيعة الوحش. وبينما لا يزال كلُّ ما هو صلب يتحلل متحولاً إلى أثير، فإنَّ الصورة المفعمة بالحيوية التي رسمها **رأس المال** لتلك القوى التي تتحكّم بحياتنا – وما تنتجه من زعزعةٍ، واغترابٍ، واستغلال – لن تفقد قطّ أثرها، أو قدرتها على جعل العالم بؤرة الاهتمام. وكما ختم ذلك المقال الذي نشرته **النيويوركر** عام 1997، فإنَّ "كتب ماركس سوف تظلّ جديرة بالقراءة ما دامت الرأسمالية باقية". وبعيداً عن أن يُدفَن تحت أنقاض جدار برلين، لعلّ ماركس لم يبرز إلا الآن بأهميته الحقّة. ولعلّه يغدو المفكّر الأشدّ نفوذاً في القرن الواحد والعشرين.